آياتُ البشائر

مختاراتٌ من (تفسير الميزان)

إعداد «أسرة التحرير»

في القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ، تتحدّثُ بالمباشرة أو بالواسطة عن بشارات الأنبياء السّابقين برسول الله ﷺ، أو تتحدّثُ عن نتائج هذه البشارات التي يجمعُها معرفةُ الأُمم السّابقة وخصوصاً اليهود والنّصارى بسَيّد النّبيّين معرفةً تامّة ﴿..كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ..﴾.

ما يلي، مختاراتٌ حولَ أبرز هذه الآيات المباركة، تقدّمها «شعائر» من (تفسير الميزان) للعلّامة الطّباطبائيّ قدس سره.

الآية الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ..﴾ الصف:٦.

".." هذه الآية، والّتي قبلَها، والآياتُ الثّلاثُ بعدَها، مَسوقَةٌ لتسجيل أنّ النّبيّ ﷺ رسولٌ معلومُ الرّسالةِ عندَ المؤمنين، أرسلَه اللهُ تعالى بالهُدى ودينِ الحقّ لِيُظهرَه على الدِّينِ كلِّه وَلَو كَرِهَ الكافرونَ من أهلِ الكتاب، وما جاءَ به من الدِّين نورٌ ساطعٌ من عند الله، يريدُ المشركون لِيُطفئوه بأفواهِهم، واللهُ مُتِمُّ نورِه وَلَو كَرِهَ المشركون.

ومن ذلك يُعلَم أنّ قولَه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ..﴾ الصف:٦، إلخ، كالتّوطئةِ لِما سيُذكَر من كَوْنِ النّبيّ ﷺ رسولاً مبشّراً به مِن قَبل، أرسلَه اللهُ بالهُدى ودينِ الحقّ، ودينُه نورُه تعالى يَهتدي به النّاس.

".." وقوله: ﴿..وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ..﴾ الصف:٦، إشارةٌ إلى الشّطر الثّاني من رسالتِه عليه السلام، وقد أشارَ إلى الشّطرِ الأوّل بقولِه: ﴿..مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ..﴾ الصف:٦.

التّأمّل في المعارف الإلهيّة التي يدعو إليها الإسلام يكشف أنّها أدقّ ممّا في غيره من الشّرائع السّماويّة السّابقة، وخاصّة التّوحيد.

ويعودُ مَعنى كلامِه: ﴿..إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا..﴾ الصف:٦ إلخ، إلى أنّي رسولٌ من الله إليكم، أدعو إلى شريعةِ التّوراةِ ومنهاجِها -﴿..وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ..﴾ آل عمران:٥٠- وهي شريعةٌ سَيُكمِلُها اللهُ بِبَعْثِ نَبيٍّ ﴿..يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ..﴾ الصف:٦.

وإلى ذلك الإشارة بقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ..﴾ الأعراف:١٥٧، وآيات أخرى تَصِفُ القرآن.

والآية، أعني قولَه تعالى: ﴿..وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي..﴾ الصف:٦، وإنْ كانت مصرّحةً بالبشارة، لكنّها لا تدلُّ على كَوْنِها مذكورةً في كتابِه عليه السلام، غير أنّ آيةَ الأعراف المنقولة آنفاً: ﴿..يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ..﴾ الأعراف: ١٥٧، وكذا قولُه تعالى في صفةِ النّبيّ ﷺ: ﴿.. ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ..﴾ الفتح:٢٩، يَدلّان على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿..ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ..﴾ الصفّ:٦، دلالةُ السِّياقِ على تعبيرِ عيسى عليه السلام عنه صلّى الله عليه وآله بأحمد، وعلى كَوْنِه اسماً له يُعرَفُ به عندَ النّاس، كما كان يُسمّى بمحمّد، ظاهرةٌ لا سترةَ عليها، ويدلُّ عليه قَولُ حسّان:

صلّى الإلهُ ومَن يَحُفُّ بعَرشِهِ   والطَّيِّبونَ على المبارَكِ أحمَدِ

ومن أشعار أبي طالب قولُه:

وقالوا لأحمدَ أنتَ امرؤٌ   خلوفُ اللّسانِ ضعيفُ السّبَبِ
ألا إنّ أحمدَ قد جاءَهم   بحقٍّ ولَم يأتِهم بالكَذِبِ

وقولُه مخاطباً العبّاسَ وحمزة وجعفراً وعليّاً عليه السلام يُوصيهم بنَصر النّبيّ صلّى الله عليه وآله:

كونوا فدًى لَكُم أُمّي وما وَلَدَتْ   في نَصْرِ أحمدَ دونَ النّاسِ أتراسا

ومن شعره فيه صلّى الله عليه وآله، وقد سمّاه باسمِه الآخر، محمّد:

ألَم تعلَموا أنّا وجَدْنا محمّداً   نبيّاً كموسى خُطَّ في أوّلِ الكُتُبِ

ويُستفاد من البيت أنّهم عثَروا على وجودِ البشارة به صلّى الله عليه وآله في الكُتُبِ السّماويّةِ التي كانت عندَ أهلِ الكتاب يومئذ ذاك.

تعبيرُ عيسى عليه السلام عنه صلّى الله عليه وآله بأحمَد يدلُّ بوضوحٍ على كَوْنِه اسماً له يُعرَف به عندَ النّاس كما كانَ يُسمّى بمُحمّد.

ويؤيّدُه أيضاً إيمانُ جماعةٍ من أهلِ الكتاب من اليهود والنّصارى، وفيهم قومٌ من علمائهم كَعبدِ الله بنِ سلام وغيرِه، وقد كانوا يسمَعون هذه الآياتِ القرآنيّةَ التي تذكرُ البشارةَ به صلّى الله عليه وآله، وذِكْرَه في التّوراة والإنجيل، فتلقّوه بالقَبولِ ولم يُكذّبوه ولا أظهَروا فيه شيئاً من الشّكّ والتّرديد.

وأمّا خُلُوّ الأناجيلِ الدّائرةِ اليوم عن بشارة عيسى بما فيها من الصّراحة، فالقرآن -وهو آيةٌ معجزةٌ باقية- في غنًى عن تصديقِها، وقد تقدّم البحثُ عن سندِها واعتبارِها في الجزء الثّالث من الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿..فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ الصف:٦، ضمير «جاء» لأَحمد صلّى الله عليه وآله، وضمير «هم» لبَني إسرائيل، أو لَهم ولغيرِهم، والمرادُ بالبيّناتِ البشارةُ ومعجزةُ القرآن وسائرُ آياتِ النبوّة.

والمعنى: فَلَمّا جاءَ أحمدُ -المبشَّر به- بني إسرائيل، أو أتاهُم وغيرَهم بالآياتِ البيّنةِ التي منها بشارةُ عيسى عليه السلام، قالوا هذا سحرٌ مُبين، وقُرِئ: هذا ساحرٌ مُبين. (المصدر: ج ١٩، ص ٢٥١)

***

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ..﴾ البقرة:١٤٦، الضميرُ في قولِه يعرفونه، راجعٌ إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله دونَ الكتاب، والدّليلُ عليه تشبيهُ هذه المعرفة بمعرفةِ الأبناء، فإنّ ذلك إنّما يحسنُ في الانسان، ولا يُقالُ في الكتاب، إنّ فلاناً يعرفُه أو يعلمُه، كما يعرفُ ابنَه «..».

فالمعنى أنّ أهلَ الكتابِ يعرفون رسولَ الله صلّى الله عليه وآله بما عندَهم من بشاراتِ الكُتب، كما يعرفون أبناءَهم، ﴿..وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ البقرة:١٤٦.

(المصدر: ج ١، ص ٣٢٧)

***

ويضعُ عنهُم إصرَهُم والأغلالَ التي كانت عليهِم

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ ..﴾ البقرة:١٤٦، هذا إخبارٌ عمّا شَهِدَ به اللهُ سبحانَه في الكُتُبِ المنزَلةِ على أهلِ الكتاب، وعلَمِه علماءُ أهلِ الكتاب ممّا عندَهم من كُتب الأنبياء من البشارة بعد البشارة بالنّبيّ ﷺ، وَوَصْفِه بما لا يعتَريه شَكٌّ ولا يطرَأُ عليه رَيب. فَهُم بما استَحضروا من نعتِه ﷺ يعرفونَه بعينِه كما يعرفون أبناءَهم.

كان بعضُ علمائهم يكتمونَ ما عندَهم من بشاراتِه ونعوتِه صلّى الله عليه وآله، ويستَنكفونَ عن الإيمانِ به.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ ..﴾ الأعراف:١٥٧

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ ..﴾ الفتح:٢٩.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الشعراء:١٩٧.

ولمّا كانَ بعضُ علمائِهم يكتمونَ ما عندَهم من بشاراتِه ونعوتِه ﷺ، ويستنكفونَ عن الإيمانِ به، بَيَّنَ اللهُ تعالى خسرانَهم في أمرِهم، فقال: ﴿..ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الأنعام:١٢ "..". (المصدر: ج ٧، ص ٤٠)

***

الآية الثالثة: قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ البقرة:٨٩.

قولُه تعالى: ﴿..وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ..﴾ البقرة:٨٩، (يدلُّ) على وقوعِ تَعرُّضٍ بهم من كفّار العرب، وأنّهم كانوا يستَفتحون، أي يطلبونَ الفتحَ عليهم ببعثة النّبيّ ﷺ وهجرتِه- وأنّ ذلك الاستفتاحَ قد استمرَّ منهم قبلَ الهجرة، بحيث كان الكفّارُ من العرب أيضاً يعرفونَ ذلك منهم لمكانِ قولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ﴾ وقولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ -أي عرَفوا أنّه هو بانطباقِ ما كانَ عندَهم من الأوصافِ عليه- ﴿كَفَرُواْ﴾. (المصدر: ج ١، ص ٢٢٢)

كانوا قبلَ البعثةِ والهجرة يَستنصرونَ بالنّبيّ صلّى الله عليه وآله وبالكتابِ النّازلِ عليه، ثمّ لمّا نزلَ بهم النّبيُّ صلّى الله عليه وآله ونزلَ عليه القرآن، وعرَفوا أنّه هو، كفَروا وأنكَروا، بَغْياً وحَسَداً.

يُحدِّث بتَحنُّنِك، ويُخْبِرُ أفهامَ العارفين بشَفَقَتِك

فسبحانَك يا مَن ليسَ في البحارِ قَطَراتٌ، ولا في متونِ الأرضِ جَنَباتٌ، ولا في رِتاجِ الرِّياحِ حَرَكاتٌ، ولا في قلوبِ العبادِ خَطَراتٌ، ولا في الأبصارِ لَمَحاتٌ، ولا على متونِ السَّحابِ نَفَحاتٌ، إلّا وهي في قدرتِك مُتَحَيِّرات.

أمّا السّماءُ فَتُخبرُ عن عجائبِك، وأمّا الأرضُ فَتَدلُّ على مدائحِك، وأمّا الرّياحُ فَتَنشرُ فوائدَك، وأمّا السّحابُ فَتهطلُ مواهبَك، وكلُّ ذلك يحدِّث بتَحنُّنِك ويُخْبِرُ أفهامَ العارفينَ بشَفَقَتِك.